

انكسارات داخلية

جيدل بن الدين

بعض الحالات . سُحب تبغ (أوراس) الرخيص ورائحة النبيذ الأحمر والهموم المصبرة في علب عالية التركيز ، تمتزج في الداخل ، تُشجر ، تملأ النفس تخمينات وأحلاماً عن الذي أتى والذي سيأتي . بعض الجرائد القديمة تغلف سطح الصندوق الذي أستعمله منذ زمن كمائدة . رغم بقع النبيذ الحمراء المنتشرة عليها هنا وهناك ، فالكتابة ما زالت تقرأ وكأنها خارطة للتؤمن المطبعة .

الرفاق الذين تعودوا زيارتي مساء كل خميس ، فات موعد حضورهم هذه الليلة ، تأخروا أكثر من اللازم . لا بد أن أمراً خطيراً قد حدث . سأتلهى بكأس وبشيء ما يشغل فكري قطعاً للهيم . رفعت بصري إلى الصور التي حال لونها . لم تبق منها إلا العيون والشوارب ناصعة السواد والبياض . تساءلت :

- « ما عساها تقول عيون الشهداء المحملقة فينا؟ ... »

نهاية كل أسبوع نمارس أمامها ممنوعات الخمر والسياسة والألم ... لماذا تحمل نظراتها هذا الأسى ؟ ... أتراها مهمومة هي الأخرى ، تريد غمر ما بها بمشاركتنا هذا الذي نعبه ؟ ... تداوي جراحها مثلما نداوي بهذا السائل الأحمر الممنوع ... يتشمم البوليس رائحته ، يلاحقه أينما حل ... وبوليس مدينتنا لا يترك الأحلام تمر دون جمركتها ... دون التحري عن لونها وطبيعتها انتمائها ! »

« إلى الوجه الذي ما زال يمنحني حرارة الحياة رغم غيابه ، والصوت الذي سيظل هاجسي أبد الدهر . »

كالزلال العنيف كانت الدفعة ... تداعت لها كل أطراف الجسد ، تساقطت بعض لبنات النفس في غير تناسق . من غياهب القلب وظلمائه ناديتها وتقيأت أمعائي . عندما انصب اسمها في أذن أحدهم قال :

- « ومن عساها تكون أمك ؟ ... عاهر مرّ عليها كل رجال المدينة ! »

اصفرّ العالم ودار ، دارت معه الجدران والصور ... وانصفق شيء بعيد بعيد ، تحيلته جسماً يهوى من سابع سماء ... تحسست الرطوبة الساخنة على جيبني ... لزجة كانت ، وسريعة التدفق ... كالحب ... كالشعر ... كالمطر الغزير ... كالصوت الذي كنت أسمع قبل قليل ...

استولت عليّ رغبة جامحة في الراحة والاستلقاء . لاحت في خاطري أرض بعيدة الأفق ، واسعة الأرجاء ، يتوهج اخضرارها تحت شفق عقيقي اللهب . اغمضت عيني ، رحت أحلم كما يحلم الأطفال ...

كانت الحجرة ضيقة ، ضيقة جداً لكنها بحجم الوطن . الشهداء الملتصقون على الحائط يرنون إليّ ... أرى عيونهم تتحرك في محاجرها . لا شك أن أرواحهم تلتحم بصورها في

الجريدة . لا بد لي أن أعرف بعض الذي تحمله . أفرغت الكأس في جوفي ، أبعدها ، أبعدت القارورة . . .

- « لتذهب إلى أخواتها ، فالغربة صعبة يا أمي ! »

واندلق في داخلي شيء ، لا أعرف كنهه ولا ماهيته ، أرق من الشعر ، أحر من الجمر ، كالغناء ، كالنشيج . صرخت بصوت حاد :

- « عظيم أنت أيها الكاتب الذي عانى كل هذا الألم ، مسكين أنت أيها الذي ستشربه ! »

وعاد الصوت الأليف يتدخّل ثانية :

- « أنت تكتب أيها الحبيب ، والكتابة خطر عليك وعليّ في هذا الزمن » .

غاص كالخنجر في أعماق حزني . أمسكت قلبي ، كان يتلوى تسحقه الأوجاع . حالتي لا تسمع بالتمييز ، الوعي غاب ، عدت أخلط بين الواقع والحلم ، أتوهم أشياء لا وجود لها . استرجعت صورتها في نفسي ، تأججت في ظلماء الدّاخل ككرة من نار . تساءلت :

.. « هذا الصوت يشبه صوتها ، يكاد يكون هو . أتراها دخلت معي الحجره ساعة دخولي وسكري يعميني عن رؤيتها ، أم أنها حاضرة دوماً في الذات وصوتها هو أنا ؟ . . . لا بد أن أستجمع ما تبقى من صحوي وأعانقها ، فالشوق جنون والكتابة عُري » .

وتذكرت رائحة التبغ والتبغ والجرائد المهمومة . والشهداء يحملقون دوماً في هذه الحجره الضيقة ، تغشي وجوههم مسحة المعاناة والكتابة . ربطت ذلك بخوفها من التجلي ، قلت لها في همس :

- « لا ترتعبي ، فأنا لا أريد الكتابة عنك ، لا أريد تعريتك وإنما أريد تعرية ذاتي . أنت غالية ، وأنا والتبغ والهموم ورائحة التبغ وعيون الصور . عريك يحتاج إلى طفوس وأجواء شرقية ساحرة . داوي جراحك بكأس ان رغبت . افترشي همومك بجانيبي . توسدي الأوجاع ونامي في انتظار وصول الرفاق الذين أبطأوا على غير عاداتهم . بطّانيات الحزن هناك ، هل ترينها ؟ . . . تناولي ما يحميك من جليد آخر الليل ، واتركي البقية لي وهم » .

طفا على سطح ذاكرتي شيء ، سمعته أو قرأته ، في حالة صحو أو سكر ، حاولت تجاهله لكنّه ظلّ يחדش الوعي والذاكرة . عريضة حيثيات منع التبيذ حملت في ما حملت من ادانات ، كونه أحر اللون ، كادح الانتفاء ، يمنح الشعب متعة الحلم والتجلي .

بقيت الغصة حبيسة الصدر والعيون المشدودة الى العيون ، أحسست بهالة نورانية تأخذ بصري ، أدركت أن الحملقة في الصور كالتحديق في الشمس ، لا يرى بعدها الانسان غير الظلام .

عدت إلى الجرائد اليومية القديمة التي تغلّف سطح الصندوق . لا زالت أمامي تشرب السائل المراق ، تمتصه في تلذذ ولوعة . . .

- « حتى الورق كره عالمه ، يريد تغييره بك يا « دم السبع » . . . لم يطفحه ما سقوه من سواد المطابع وورصاصها . . . يريد أن يرحل بعيداً عن الأخبار الخزينة التي تسكنه . . . ينساها للحظات . . يحوها من ذاكرته بقية الليل »

وعنّ لي أن أسمع الغرفة والصور ما يدور بخلدي ، أن أتساءل بصوت مسموع عن السبب الذي يدفع الجرائد الى السكر . في داخلي اقتناع بإمكانية سماع الجواب من الجرائد نفسها . أكيد أنها ستتكلّم ما دامت عيون الصور تتحرّك في محاجرها . قبل أن أتكلّم ، جلجل صوت في أرجاء الغرفة . لا أعلم من أين ولكنّه أت ، يتوهج كالجمر في ليلة شتاء :

- « همومها أثقل من همومك أيها الحبيب . . . هي تشرب لنفسها ولبعض الشهداء . » التفت الى مصدره . لا أحد سوى ذاتي والقارورات الفارغة والصور الرّانية .

- « قارورات فارغة ؟ ! . . . أيعقل أن أكون أنا الذي شرب كلّ هذه اللترات لوحده ، في زمن قصير كهذا ؟ ! . . . لا شك أنني سكران ، أهذي وأسمع أصواتاً من عالم الوهم . أسرفت في الشرب والسائل الأحمر غير متوفر . باعة الليل وحدهم يملكونه . . . والشربة . . . وآخر الشهر ما زال بعيداً . . مسؤول التموين سيحاسبني على هذا ، لن يغفر لي كلّ هذا الإسراف ، لن أطفح الكأس بعد هذه المرّة . »

رجع الصوت لا زال يهزّ كياني . أصحخت لعلّه يتناغم مرّة أخرى . صمت ثقيل يلفّ الكون . عدت إلى التفكير في

هددهتها وشربت كأسَي الثانية والعشرين . قدّرت هذا من عدد القارورات الفارغة . انتظرت أن يجلجل صوتها ثانية ، أن تقول لي :

- « أنت تحبّ أيها الكاتب ، والحبّ خطر عليك وعليّ في هذا الزّمن » .

ولكن الصمت ران . . . لا شكّ أنها نامت أو سكرت أو لم تحضر بتاتاً . محال أن تنام . محال أن تغيب . هل شربت معي ولم أع ؟ . . . لست أدري ؟ .

ركّزت ذهني لعلّني أسترّد بعض وعيي :

- « هل هي هنا حقيقة ، أم أنها حالة سكر وأنّي على وشك القيء ؟ »

تحمّلت على نفسي ، شرعت في عدّ القارورات الفارغة . أربعاً كانت ، عندها تذكّرت مسؤول التّموين يحذّر الساقى :

- « آخر قنينة . اقتصد فالصباح ما زال بعيداً » .

ويحتجّ الرّفاق على سياسة التّقشف المتّهجة في حقّهم ، تذكّروهم بقساوة المصانع . . . سوادها . . . صرامة أغوالها . تترأى لهم (الفيلات) الجديدة تنبت كلّ يوم . كلّ يوم سيارات جديدة ، أرصدة جديدة . يكثر اللّغط ، تشتدّ لهجة بيانات الإداة ، تتحوّل الحجرة الضيقة الى ساحة للتظاهر الشعبي ، يتدخل مسؤول الأمن :

- « للجدران أذان أيّما السكارى . ممنوع ممارسة السياسة ولو داخل حجرة ضيقة كهذه » .

أصرخ بأعلى صوتي :

- « لا بدّ أن تتحوّل احتجاجات الغرفة الضيقة الى المصنع والشارع . لا بدّ » .

ويزلزل الباب ، ترفسه حوافر حديدية ، ترجه ، يعاني ألم الانكسار . يصفعني تيار قطبي يطير الجرائد ونشوة السكر ، ينثر بقايا السجائر ورمادها . تفرقع مسامير الأحذية السوداء . يتقلّص حجم الغرفة ، تختنقها الكأبة . تتسمّر العيون التي كانت تتحرّك في محاجرها . أفتقد مسؤول الأمن والتّموين وصوتها ووجوه بقيّة الرفاق . أرى المصانع تبتلعهم نهاية كلّ ليل ، تتبرّزهم غروب كلّ شمس :

- « وحدي أنا يا أمي . غريب والغربة صعبة في هذا الزّمن . مهموم أنا ولا من يضمّد الجراح سوى الاعتصام بوجهك » .

قال عندما انصبّ اسمها في أذنه :

- « ومن عساها تكون أمك ؟ . . . عاهر مرّ عليها كل رجال المدينة ! »

اصفرّ العالم ودار . دارت معه الجدران والصور ، وانصفق شيء بعيد بعيد . تحيّلته جسماً يهوي من سابع سماء . تحسّست الرطوبة الساخنة على جبيني ، لزجة كانت وسريعة التّدق . . . كالحبّ . . . كالشعر . . . كالطر الغزير . . . كالصوت الذي كنت أسمع قبل قليل .

البیض (الجزائر)

دَارُ الْأَدَابِ نَمُ

سلسلة

بطولات عربية

○ زنوبيا فارسة الصحراء بقلم فالح فلوح

○ سيف الدولة الحمداني بقلم فالح فلوح

○ معركة الزلاقة بقلم فالح فلوح

○ لبيك ايها المرأة بقلم سليمان العيسى

○ الحدث الحمراء بقلم سليمان العيسى

○ ابن الصحراء بقلم سليمان العيسى

○ صلاح الدين الايوبي بقلم فالح فلوح

دار الأداب شارع ميزان، بناية مركز الكتاب، ص.م.ب ١١٢٣ ٨٠٣٧٧٨